الإمام المهدي المنتظر (عج) في نهج البلاغة – الأول

الشيخ حيدر فاضل الشكري

بحث تأويلي دلالي

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين حبيب إله العالمين أبي القاسم محمد بن عبدالله وعلى أهل بيته المظلومين خلفاء الله في العالمين

وبعد....

في فلسفة وجود الإنسان في دار الدنيا، أن هذا الإنسان محاط بجملة من الضوابط والتكاليف الشرعية التي تحفظ له إنسانيته ومن دونها يهبط إلى أسفل سافلين.

إنّ هذه الضوابط والتكاليف قد جاء بها الأنبياء والمرسلون لا سيما خاتمهم الحبيب المصطفى محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي تمثّل رسالته خلاصة كل الرسالات والكتب السماوية.

وكان (صلى الله عليه وآله وسلم) يمثّل الحجة المعصومة لله عزّ وجلّ في تبليغ الرسالة وإرشاد الخلق إلى طريق الهدى والصلاح. فإذا ما رحل (صلى الله عليه وآله وسلم) عن هذه الدنيا فلابدّ من وجود حجج معصومة من بعده في كل عصر وزمان لإتمام الحجة الإلهية على العباد؛ إذ لا يخلو زمان من حجة وهذا مضمون ما ورد عن امير المؤمنين (عليه السلام) في نهج البلاغة حيث قال (عليه السلام): «اللهم بلا لا تخلو الأرض من قائم لله بحجّة، إمّا ظاهراً مشهوراً، أوخائفاً مغموراً، لئلا تبطل حجج الله وبيّناته».

ومن هذا المنطلق تتبين حتميّة وجود إمام حقّ في كل زمان يكون حجة لله تبارك وتعالى على خلقه في الدنيا والآخرة، قال تعالى: «يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ»[١]، وقال تعالى: «إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ»[٢].

فإذا كانت العصور الماضية لم تخل من إمام، وقد مضى أحد عشر إماماً من ائمة أهل البيت (عليهم السلام) وكان آخرهم الإمام العسكري (عليه السلام) الذي استشهد سنة (٢٦٠ هـ)، فهل يمكن أن تبقى الأرض ويبقى الخلق منذ ذلك الوقت والى يومنا هذا بلا امام؟!! والحال أنّ الحديث الشريف يقول: «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة الجاهلية».

الجواب: هذا محال؛ وذلك لحصول نقص في إتمام الحجة الإلهية على عباده. وكذلك فإن حياة الأرض وما عليها يرتبط ارتباط ضرورياً لا انفكاك له بالإمام المعصوم. وبتعبير آخر فإن وجود الإمام (عليه السلام) لا يخصّ مسألة الهداية للخلق فحسب، بل أنّ كل القوانين الطبيعية مرتبطة به، فهومتجذّر ومتأصّل في كل الطبيعة وفي كل دقائق هذا الكون. ومن هنا يثبت معنى ما ورد في الروايات عن أهل بيت العصمة (عليهم السلام): «لولا الحجّة لساخت الأ بأهلها».

إضافة إلى ماذكرنا فإنّ هناك فلسفة أُخرى في ضرورة وجود الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) تكمن في حتمية وجود ميزان فيصل بين مراحل الصلاح والفساد. فإذا رجحت كفة الفساد يفترض وجود من يثقل كفة الصلاح. وإلّا فعدم التوازن بينهما يؤدّي الى النهاية الحتمية للأرض ومن عليها.

إنّ الموازين المنطقية والتفكير العقلائي مضافاً إليها الأدلّة القرانية والروائية، كلّها تؤكّد وجود الإمام (عجل الله تعالى فرجه الشريف) وضرورة ظهوره في آخر الزمان لينشأ الدولة العالمية التي تنصف المظلوم وتقتص من الظالم وتنشر العدل وتعطي كل

ذي حقّ حقّه ويطبّق فيها الإسلام المحمدي الأصيل.

وفي بحثي هذا آليت التطرق إلى الفصول الخاصة بالإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف)، والتي وردت في نهج البلاغة لبيان مضامينها ودلالاتها، وهي تشمل جملة من العناوين الخاصة بالعقيدة المهدوية. راجياً من الله تعالى التوفيق والقبول إنّه سميع مجيب.

(١) – قال (عليه السلام): «وَخَلَّفَ فِينَا رايَةَ الْحَقِّ، مَنْ تَقَدَّمَهَا مَرَقَ، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا زَهَقَ، وَمَنْ لَزِمَهَا لَحِقَ، دَلِيلُهَا مَكِيثُ الْكَلامِ ، بَطِيءُ الْقِيَامِ، سَرِيعٌ إِذَا قَامَ، فَإِذَا أَنْتُمْ أَلَنْتُمْ لَهُ رِقَابَكُمْ، وَأَشَرْتُمْ إِلَيْهِ بِأَصَابِعِكُمْ، جَاءَهُ الْمَوْتُ فَذَهَبَ بِهِ، فَلَبِثْتُمْ بَعْدَهُ مَا شَاءَ اللهُ حَتَّى يُطْلِعَ اللهُ لَكُمْ مَنْ يَجْمَعُكُمْ وَيَضُمُّ نَشْرَكُمْ. أَلاَ إِنَّ مَثَلَ آلِ مُحَمَّد (صلى الله عليه وآله وسلم)، كَمَثَلِ نُجُومِ السَّمَاءِ، إِذَا خَوَى نَجْمٌ، طَلَعَ نَجْمٌ، فَكَأَنَّكُمْ قَدْ تَكَامَلَتْ مِنَ اللهِ فِيكُمُ الصَّنَائِعُ، وَأَرَاكُم مَا كُنْتُمْ تَأْمُلُونَ» [٣].

«وَخَلَّفَ فِينَا رايَةَ الْحَقِّ»: الفعل (خلّف) يعود الى رسول الله _صلى الله عليه وآله وسلم).

«راية الحق»: هناك أكثر من قول في تأويلها:

الاول: قال ابن أبي الحديد: (إنّ المراد براية الحق: الثقلان المخلّفان الكتاب والعترة)[٤].

فقد روى مسلم: أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: «وإنّي تارك فيكم ثقلين، أوّلهما كتابُ الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به»، فحثّ على كتاب الله ورغّب فيه ثم قال: «وأهل بيتي، أذكّركم في أهل بيتي، أذكركم في أهل بيتي»[٥].

الثاني: قال ابن ميثم: (المراد: الكتاب والسنة)[٦].

الثالث: المراد براية الحق خصوص الكتاب وهوالأرجح بدليل قوله (عليه السلام): «دليلها مكيث الكلام...» أي: العترة الطاهرة (عليهم السلام) دليل كتاب الله تعالى، فإنّهم كتاب الله الناطق الذي يمثل الدليل على أحكام الكتاب الصادق، وكما قال امير المؤمنين (عليه السلام) لأهل صفين – عندما رفعوا المصاحف-: «ويحكم! أنا كتاب الله الناطق».

«من تقدمها مرق»: اي من تقدمّ راية الحق خرج من الدين.

«ومن تخلّف عنها زهق»: اي هلك كل من لم يعلم بأحكامها.

«ومن لزمها لحق»: اي: وصل المتمسّك بها إلى غايته ومقصده.

دليلها: أي: دليل الراية، وأراد الإمام (عليه السلام) به نفسه (عليه السلام)؛ لأنّ الحق يدور معه كيفما دار بشهادة الرسول الأعظم كما في الحديث الشريف: قال (صلى الله عليه واله وسلم): «علي مع الحق، والحق مع علي، يدور معه كيفما دار»[٧].

مكيث الكلام: المكث في الكلام ليس معناه قلة الكلام، وإنّما يكون الكلام عن تدّبر وروية للعقل حتى ولو كثر الكلام، وهذه من الصفات الممدوحة، ويقابلها السرعة في الكلام وإن كان قليلاً، وكما قيل: لسان العاقل من وراء قلبه، فإذا أراد الكلام تفكّر فإن كان له قال، وإن كان عليه سكت، وقلب الجاهل وراء لسانه، فإنّ همّ بالكلام تكلّم من غير تروٍّ، سواء كان له أوعليه.

«بطيء القيام، سريع إذا قام»: أي: أنّه إذا اقتضت مصلحة الدين من الإمام (عليه السلام) القعود أحجم وامتنع عن القيام، كما صنع علي (عليه السلام) بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عندما اغتصب حقه في الخلافة، وعندما ظلمت فاطمة الزهراء (سلام الله عليها)، بينما في أيام خلافته (عليه السلام) اقتضت الحكمة والمصلحة العليا للإسلام القيام بوجه الناكثين والقاسطين والمارقين، ونظير هذين الموقفين لأميرالمؤمنين (عليه السلام) ما قام به ولداه الحسن والحسين (عليهما السلام)، حيث قعد الحسن (عليه السلام) عن للقتال بينما قام الحسين للقتال، وهذا مصداق ما ورد عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عندما قال: «الحسن والحسين إماما حقّ إن قاما، وإن قعدا، وأبوهما خير منهما»[٨].

إذن التأني في الأُمور هو من صفات العقل والتسرع من صفات الجهل. وقد وردت في هذا المعنى جملة من الروايات نذكر بعضها.

في الوسائل عن الصدوق بإسناده عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في وصيته لمحمد بن الحنفية قال (عليه السلام): «من استقبل وجوه الآراء عرف مواقع الخطأ ومن تورّط في الأمور غير ناظر في العواقب فقد تعرّض لمفظعات النوائب، والتدبير قبل العمل يؤمّنك من الندم، والعاقل وعظه التجارب، وفي التجارب علم مستأنف، وفي تقلّب الأحوال علم تجارب الرجال »[٩].

وفيه من مجالس الشيخ بإسناده عن أبي قتادة القمي قال: قال ابوعبد الله (عليه السلام): «ليس لحاقن رأي، ولا لملول صديق، ولا لحسود غني، وليس بحازم من لا ينظر في العواقب والنظر في العواقب تلقيح للقلوب »[١٠].

ومن محاسن البرقي مسنداً إلى أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: «أتى رجل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: علمني يارسول الله، قال (صلى الله عليه وآله وسلم): عليك باليأس مما في أيدي الناس، فإنّه الغنى الحاضر، قال: زدني يارسول الله، قال (صلى الله عليه وآله وسلم): إياك والطمع فإنّه الفقر الحاضر، قال: زدني يارسول الله، قال (صلى الله عليه وآله وسلم): إذا هممت بأمر فتدبّر عاقبته إن يك خيراً ورشداً فاتبعه، وإن يك غيّاً فاجتنبه»[١١].

إنّ كل ما كان يصدر من الأئمة الهداة (عليهم السلام) الذين اختارهم الله تعالى لأمره وجعلهم حججاً على عباده، من قول ومن فعل إنّما هوعن تدبّر العقل ورويته وعن الدين وشريعته، فإذا ظهر وجه المصلحة في القيام بأمرٍ ما للمعصوم قام سريعاً وانتهز الفرصة، وإلّا فإنّه (عليه السلام) يحجم ويمتنع عن القيام والمبادرة.

ثم قال (عليه السلام): «فإذا أنتم ألنتُم له رقابكم، وأشرتم إليه بأصابعكم، جاءه الموت فذهب به»: الضمير له وإليه يعود إلى الإمام (عليه السلام)، نفي المقطع الأول من عبارته (عليه السلام) كناية عن طاعتهم له وانقيادهم لأمره بعد ما كانوا يخالفون أوامره من قبل، وفي المقطع الثاني كناية عن إجلالهم له (عليه السلام) بعد ما يعرفون مكانته وعظمته ما عدا البعض منهم، فإذا ما بلغوا هذا المبلغ من معرفتهم به وتعظيمهم له (عليه السلام) وامتثالهم لأوامره قبضه الله سبحانه وتعالى إليه وتركهم حيارى لا يهتدون إلى رشد ويتفرقون ثانية ويتسلط عليهم الأعداء.

اختلف شراح نهج البلاغة في زمن اجتماع الناس حوله وانقيادهم له (عليه السلام) ومنهم ابن أبي الحديد والمحقق التستري، فقد قال ابن أبي الحديد: «واعلم أنّ هذه الخطبة خطب بها أمير المؤمنين (عليه السلام) في الجمعة الثالثة من خلافته، وكنّى فيها عن حال نفسه، وأعلمهم فيها أنّهم سيفارقونه ويفقدونه بعد اجتماعهم عليه وطاعتهم له، وهكذا وقع الأمر، فإنّه نقل أنّ أهل العراق لم يكونوا أشدّ اجتماعاً عليه من الشهر الذي قتل فيه (عليه السلام)، وجاء في الأخبار أنّه عقد للحسن ابنه (عليه السلام) على عشرة آلاف، ولأبي ايوب الأنصاري على عشرة آلاف ولفلان وفلان، حتى اجتمع له مائة ألف سيف، وأخرج مقدّمته أمامه يريد الشام فضربه اللعين ابن ملجم، وكان من أمره ما كان، وانفضّت تلك الجموع، وكانت كالغنم فقدت راعيها»[١٢].

وقد نفى المحقق التستري في كتابه (بهج الصباغة) رأي ابن أبي الحديد واعتبر أنّ المراد بهذا المقطع من خطبته (عليه السلام) هوانتقال أصل الخلافة الظاهرية إليه (عليه السلام) ولم يكن اجتماع الناس وطاعتهم له في الشهر الذي قتل فيه على اعتبار أنّ أمره (عليه السلام) بعد التحكيم صار مضطرباً غاية الاضطراب، حتى بعد رجوعه عن حرب الخوارج نهى الناس عن دخول البلد، ليشخصوا إلى معاوية، فلم يعتنوا به، وكان معاوية يغير كل يوم على بلاده (عليه السلام) غير الكوفة، ويصيح (عليه السلام) بهم في الدفاع، ولم يصغوا إليه حتى قتل – صلوات الله عليه –[١٣].

وكان (عليه السلام) في أُخريات أيامه يرتقب الموت في لهفة ويقول مردّداً: «أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عهد إليّ أن لا أموت حتى أؤمّر، وتخضّب هذه من دم هذا، - وأشار إلى لحيته ورأسه – قضاءاً مقضياً، وعهداً معهوداً منه إليّ »[١٤].

ثم قال (عليه السلام) «فلبثتم بعده ما شاء الله حتى يطلع الله لكم من يجمعكم ويضّم نشركم».

وهنا بشّر (عليه السلام) بنصر قادم حتى لا يشعر أصحابه باليأس، أي: أنّ هناك قيام واجتماع للناس وهنا نقول متى يحدث هذا؟ هناك أكثر من رأي:

١- ظهور قائم آل محمد (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين) وهذا ما ذكر ابن أبي الحديد حيث قال: «كلامه (عليه السلام): إشارة إلى المهدي الذي يظهر في آخر الوقت، إلّا أنّه عند أصحابنا غير موجود الآن وسيوجد وعند الإمامية أنّه موجود»[١٥].

إنّه رأي ابن أبي الحديد بعدم وجود المهدي (عليه السلام) الآن، فهذا مردود لما يأتي من كلام امير المؤمنين (عليه السلام) في هذه الخطبة حيث قال (عليه السلام): «مثل آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) كمثل نجوم السماء، إذا هوى نجم طلع نجم»، وكذلك في خطبة أُخرى – ستأتي لاحقاً – حيث يقول (عليه السلام): «لا تخلوالأرض من قائم لله بحجة إمّا ظاهرًا مشهوراً اوخائفاً مغموراً»[١٦].

وكذلك فهو يتعارض مع حديث الثقلين من عدم افتراق القرآن والعترة الطاهرة (عليهم السلام) حتى يردا على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الحوض.

٢- قيل: إنّ المراد هو قيام دولة بني العباس الذي أنهى دولة بني أمية وهذا ما ذكره ابن ميثم في شرحه[١٧]، حيث نقل الرأي الأول ايضاً. وهذا مردود – أيضاً – لأنّ راية بني العباس باطلة كسابقها راية بني أمية في ظلمهم وفسادهم، حين أنّ الإمام (عليه السلام) بين في خطبته هذه أنّ اجتماع الناس وضم نشرهم على راية الحق.

٣- وقيل: أنّ المراد بهذا الاجتماع هوالاجتماع الفكري والثقافي إلى جانب الاجتماع السياسي والعسكري، وهوالمعنى الذي تحقق على عهد الإمام الباقر والصادق والرضا (عليهم السلام)[١٨].

ولعل هذا الاجتماع مستبعداً لعدم انسجام هذا المعنى مع العبارات السابقة التي أشارت إلى الاجتماع السياسي والعسكري.

والرأي الأوّل هوالأنسب فليس هناك من يجمع الناس ويضم نشرهم غير قائم آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي سوف يظهر في آخر الزمان، وطوبى لمن أدرك زمانه (عليه السلام).

قال الإمام الصادق (عليه السلام): «المنتظر الثاني عشر هو المفرج للكرب عن شيعته بعد ضنك شديد، وبلاء طويل، وجزع وخوف، فطوبى لمن أدرك ذلك الزمان»[١٩].

ثم قال (عليه السلام): «ألا إنّ مثل آل محمد، (صلى الله عليه وآله وسلم) كمثل نجوم السماء، إذا أخوى نجم طلع نجم».

وهنا دعا (عليه السلام) الناس إلى الاهتداء بآل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)؛ لأنّ مثلهم كمثل نجوم السماء التي يهتدي بها الناس في ظلمات البر والبحر كما في قوله تعالى: «وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ»[٢٠].

فالنجاة في الدنيا والآخرة ونيل السعادة في الدارين والفوز بالرضوان إنّما هو في ظل هدي آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) حيث لاتخلوا الأرض منهم كنجوم السماء فكلما غابت نجمة، ظهرت أخرى، وهنا أئمة العصمة (عليهم السلام) كلما رحل إمام جاء بعده إمام إلى خاتم الأئمة وهوالمهدي المنتظر(عجل الله تعالى فرجه الشريف) الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً.

ثم بشرهم (عليه السلام) بقوله: «فكأنّكم قد تكاملت من الله فيكم الصنائع»، أي: نعمه وآلاؤه تعالى، «وأراكم ماكنتم تأملون»، أي: لا تيأسوا عسى الله أن يأتي بالفرج من قريب، والمتحقق الوقوع قريب وإن كان بعيدًا ويمكن أن يكون إرائة المخاطبين مأمولهم في الرجعة والله أعلم.

ولايخفى بأنّ المراد من المأمول هوظهور القائم (عجل الله تعالى فرجه الشريف). في خبر جابر الجعفي عن الباقر (عليه السلام): «كأنّي بأصحاب القائم (عجل الله تعالى فرجه الشريف) وقد أحاطوا بما ين الخافقين، فليس من شيء إلّا وهو يطيع لهم، حتى سباع الأرض وسباع الطير»[٢١].

وفي خبر آخر عنه (عليه السلام): «اذا قام قائمنا وضع يده على رؤوس العباد، فجمع فيها عقولهم، وكملت بها أحلامهم»[٢٢].

وعن الصادق (عليه السلام): «وإنّ الرجل منهم ليعطى قوة أربعين رجلاً، وإنّ قلبه لأشدّ من زبر الحديد، ولو مرّوا بجبال الحديد لقلعوها... »[٢٣].

وقد نقل ابن ميثم في شرح هذه الخطبة حديثاً فقال: رأيت حديثاً للإمام (عليه السلام) يمكنه أن يوضح هذه الخطبة: «يا قوم اعلموا علماً يقيناً، إنّ الذي يستقبل قائمنا من أمر جاهليتكم ليس بدون ما استقبل الرسول من أمر جاهليتكم... ولعمري لينزعنّ عنكم قضاة السوء، وليقبضنّ عنكم المرائين، وليعزلنّ عنكم أمراء الجور، وليطهرنّ الأرض من كل فاش، وليعملنّ فيكم بالعدل، وليقومنّ فيكم بالقسطاس المستقيم »[٢٤].

وممّا مرّ بنا من البيان والتأويل لنستدل على مايلي:

١- إنّ أي افتراق عن راية الحقّ من جانب الإفراط والتفريط معناه الخسران المبين والهلكة في الدنيا والآخرة.

٢- إنّ الصفات التي ذكرها الإمام (عليه السلام) لدليل راية الحق، من حيث التروي والتدبّر بالقول والفعل، ومعرفة عواقب الأُمور، لابدّ من وجودها في هذا الدليل؛ لأنّه يمثل الزعيم الرباني والمدّبر لأُمور العباد والمرجع الأعلى لهم في كل أمورهم الدينية والدنيوية.

٣- لابدّ من تحقق ذروة تكامل النعم الإلهية، وذلك عند ظهور الإمام المهدي المنتظر (عليه السلام).

(٢) – وقال (عليه السلام): «يَعْطِفُ الْهَوَى عَلَى الْهُدَى إِذَا عَطَفُوا الْهُدَى عَلَى الْهَوَى، وَيَعْطِفُ الرَّأْيَ عَلَى الْقُرْآنِ إِذَا عَطَفُوا الْقُرْآنَ عَلَى الرَّأْيِ».

وقال (عليه السلام): «حَتَّى تَقُومَ الْحَرْبُ بِكُمْ عَلَى سَاق، بَادِياً نَوَاجِذُهَا، مَمْلُوءَةً أَخْلاَفُهَا، حُلْواً رَضَاعُهَا، عَلْقَماً عَاقِبَتُهَا. أَلاَ وَفِي غَد ـ وَسَيَأْتِي غَدٌ بِمَا لاَ تَعْرِفُونَ ـ يَأْخُذُ الْوَالِي مِنْ غَيْرِهَا عُمَّالَهَا عَلَى مَسَاوِىءِ أَعْمَالِهَا، وَتُخْرِجُ لَهُ الأَرْضُ أَفَالِيذَ كَبِدِهَا، وَتُلْقِي إِلَيْهِ سِلْماً مَقَالِيدَهَا، فَيُرِيكُمْ كَيْفَ عَدْلُ السِّيرَة، ويحي ميت الكتاب والسنة»[٢٥].

إنّ هذه العبارات في هذه الخطبة لأمير المؤمنين (عليه السلام) فيها إشارة واضحة إلى صفات الإمام المنتظر (عجل الله تعالى فرجه الشريف) في آخر الزمان.

قال (عليه السلام): «يَعْطِفُ الْهَوَى عَلَى الْهُدَى إِذَا عَطَفُوا الْهُدَى عَلَى الْهَوَى، وَيَعْطِفُ الرَّأْيَ عَلَى الْقُرْآنِ إِذَا عَطَفُوا الْقُرْآنَ عَلَى الرَّأْيِ».

العبارة الأولى تشير إلى الهداية العقلية، أي: أنّه (عجل الله تعالى فرجه الشريف) يردّ النفوس الضالّة عن طريق الله تعالى، والمحجوبة بحجب الهوى، والسالكة للطرق الفاسدة، والمذاهب المنحرفة؛ وذلك بسبب غياب منطق العقل والهداية. يردّها (عليه السلام) إلى سبيل الله تعالى من خلال جعل السيادة لهداية باتباع أنوار الهداية – وهم العترة الطاهرة (عليهم السلام) - .

وأمّا العبارة الثانية فتشير إلى الهداية القرآنية، أي: أنّه (عجل الله تعالى فرجه الشريف) يردّ الآراء جميعاً إلى القرآن فيحملهم على ما وافقه منها دون ما خالفه. فالقرآن هوميزان التقييم عنده (عجل الله تعالى فرجه الشريف) ويضرب كل تفسير بالرأي

وحمله على القرآن الكريم، فهناك من ذوي الأطماع والمصالح الدنيوية من حاول تطبيق النصوص القرآنية وحسب آرائهم بما يوافق تحقيق أطماعهم اللامشروعة. ولا يخفى أنّ التفسير بالرأي وحمل الآيات القرآنية عليه لهو من مكائد الشيطان الكبرى في تحريف الآيات عن معناها الحقيقي وإسقاط الوحي عن قيمته، ولذا فقد وردت روايات عن أهل بيت العصمة (عليهم السلام) أنزلت هذا الأمر بمنزلة الكفر، حيث قال الإمام الصادق (عليه السلام) : «من فسّر برأيه من كتاب الله فقد كفر»[٢٦].

إنّ ما أصاب المسلمين من البؤس والشقاء هو من وراء هذين الانحرافين وهما تحكيم هوى النفس على العقل وتطبيق الرغبات والأطماع على آيات القرآن من خلال التفسير بالرأي.

لذلك فإنّ الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) هوالذي يقف بوجه هذه الانحرافات عند ظهوره.

وفي الفصل الثاني من هذه الخطبة أشار (عليه السلام) إلى الفتن التي تظهر عند ظهور القائم (عجل الله تعالى فرجه الشريف) وهو قوله (عليه السلام): «حتى تقوم الحرب بكم على ساق»:

«الساق»: ما بين الركبة والقدم، والجمع سوق. قال تعالى: «فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ»[٢٧]. والساق يأتي بمعنى: الشدّة كما في قوله تعالى: «يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ»[٢٨]، أي: عن شدّة. قال الفيروزآبادي: والتفّت الساق بالساق آخر شدة الدنيا بأول شدة الآخرة.

فأراد الإمام (عليه السلام) بهذه العبارة اشتداد الحرب والتحامها. قال الشارح البحراني والعلامة المجلسي: وقيامها على ساق كناية عن بلوغها غايتها في الشدّة.

ثم قال (عليه السلام):«بادياً نواجذها»، النواجذ: أقصى الأضراس (أوالأسنان عند الضحك كما في مجمع البحرين)[٢٩].

في هذه العبارة كناية عن بلوغ الحرب غايتها فجاء التشبيه بظهور الأضراس (عند غاية الضحك كما قال ابن أبي الحديد، واعترض عليه البحراني بأنّ هذا وإن كان محتملاً إلاّ أنّ الحرب مظنّة إقبال الغضب لا إقبال الضحك. وهنا يكون التشبيه بظهور أضراس الأسد عن غضبه وافتراسه هوالأنسب في هذا المقام.

وقال (عليه السلام): «مملوءة أخلافها». (الأخلاف): جمع الخلف بالكسر كحمل وأحمال وهومن ذوات الخف والظلف كالثدي للإنسان، أو حملة ضرع الناقة ووردت بحملة ضرع سائر الحيوانات كالبقرة والشاة.

وهنا صفة ثالثة في تأكيد شدة الحرب حيث نزلها (عليه السلام) منزلة الناقة ذات اللبن في استعدادها واستكمالها عدتها كما تستكمل الناقة باللبن وتهيؤه لولدها.

ثم أشار الإمام (عليه السلام)، إلى نكتة لطيفة وهي أنّ البعض من يستأنس ويستلذ بمقدمات بعض الأمور والتي تكون عاقبتها وخيمة، وفي هذا العمنى قال (عليه السلام): «حلواً رضاعها وعلقماً عاقبتها»، والعقلم هوالحنظل، ويقال لكل شيء مرّ ومعنى هذه العبارة أنّ هناك من يستلذ ويستحلي الحرب طمعاً بالنصر والغلبة على الأقران والشجعان وغير ملتفتين إلى مرارة آخرها حيث القتل والهلاك وتكون عاقبة أكثرهم إلى النار والعذاب الأليم، قال الشاعر:

لحرب أول ما تكون فتيّة	تسعى بزينتها لكلّ جهول
حتى إذا اشتعلت وشبّ ضرامها	عادت عجوزاً غير ذات خليل
شمطاء جزت رأسها وتنكرت	مكروهة للشمّ والتقبيل[٣٠]

وفي العبارات التالية يتطرق الإمام أميرالمؤمنين (عليه السلام) إلى بعض من سيرة ولده الإمام القائم (عجل الله تعالى فرجه الشريف) فقال:

«ألا وفي غدٍ - وسيأتي غدٌ بما لا تعرفون -»، ومعنى هذه العبارة أنّه يخبر عن بعض الأمور التي ستكون ومنها قال (عليه السلام): «يأخذ الوالي من غيرها عمالها على مساوئ أعمالها»، ومعنى هذا: أنّ الإمام المنتظر (عجل الله تعالى فرجه الشريف)

– وهو رئيس الدولة المهدوية – يؤاخذ المسيء بأعماله، ويعاقبه بما هو جزاؤه دون أي هوادة، فيحاسب (عجل الله تعالى فرجه الشريف) العمال على كل صغيرة وكبيرة، وفي هذا المعنى وردت روايات في كتب الخاصة والعامة ومنها:

عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه قال: «إنّ القائم يومذاك يملأ الأرض عدلاً وقسطاً، كما ملئت جوراً وظلماً»[٣١].

قال الشارح المعتزلي – في هذه العبارة من الخطبة -: هذا الكلام منقطع عما قبله، وقد كان تقدّم ذكر طائفة من الناس ذات ملك وأمره فذكر (عليه السلام) أنّ الوالي من غير تلك الطائفة يعني الإمام الذي يخلفه في آخر الزمان يأخذ عمال هذه الطائفة بسوء أعمالهم[٣٢].

أي: يؤاخذهم بذنوبهم.

ومن هذه المؤاخذة ما ورد في رواية أبي بصير دون غيره عن أبي عبدالله (عليه السلام) أنّه قال:«إذا قام القائم هدم المسجد الحرام حتى يردّه إلى أساسه، وحوّل المقام إلى الموضع الذي كان فيه، وقطع أيدي بني شيبة وعلّقها بالكعبة، وكتب عليها هؤلاء سراق الكعبة»[٣٣].

ووردت الأخبار - أيضاً - بملك الجبابرة وولاة السوء عند ظهوره (عجل الله تعالى فرجه الشريف)، ومنها: في الحديث الذي رواه (كاشف الغمة)، من كتاب (كفاية الطالب، عن الحافظ أبي نعيم في فوائده، والطبراني في معجمه الأكبر، عن جابر بن عبدالله أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: «سيكون بعدي خلفاء ومن بعد الخلفاء أمراء ومن الأمراء ملوك جبابرة، ثم يخرج المهدي من أهل بيتي يملأها عدلاً كما ملئت جوراً»[٣٤].

ثم ذكر (عليه السلام) صفات أخرى للدولة المهدوية حيث قال:

«وتخرج الأرض أفاليذ كبدها». (الأفاليذ): جمع (أفلاذ)، وأفلاذ جمع (فلذ)، وهي القطعة من الكبد. وهنا كناية عن أنّ الأرض في عهد الإمام المنتظر(عجل الله تعالى فرجه الشريف) تعطي خيراتها ما ظهر منها وما بطن من حيث المعادن والنبات وكل ما فيها من الكنوز والخزائن والتي استعمار الإمام (عليه السلام) لفظة الكبد عنها، ويعضد هذا ما ورد في كتاب الله تعالى حيث قال جلا وعلا:«وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا»[٣٥].

وتلقي إليك سلماً مقالدها (المقاليد) إي: المفاتيح.

بمعنى أنّ الكلّ يطيع الإمام (عجل الله تعالى فرجه الشريف) ويتمثل لأوامره وهنا أراد أهل الأرض في هذه الكناية بأنّ الأرض تلقي مفاتيحها. وذكر المحقق الخوئي في منهاج البراعة أنّ المراد بإلقاء المقاليد فتح المدائن والأمصار وهوالأقرب[٣٦].

وينقل المحقق الخوئي رواية من (كشف الغمة) بهذا المعنى بأسانيدها عن أبي أمامة الباهلي قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «بينكم وبين الروم أربع هدن يوم الرابعة على يد رجل من آل هرقل يدوم سبع سنين». فقال له رجل من عبد النفيس - يقال له المستورد بن غيلان -: يا رسول الله، من إمام الناس يومئذٍ؟ قال:«المهدي من ولدي، ابن أربعين سنة، كأن وجهه كوكب درّي، في خدّه الأيمن خال أسود، عليه عباءتان قطوانيّتان، كأنّه من رجال بني إسرائيل، يستخرج الكنوز، ويفتح مدائن الشرك»[٣٧].

ثم قال (عليه السلام): «فيريكم عدل السيرة، ويحي ميّت الكتاب والسنّة».

وهذه من خصائص الدولة المهدوية، وهي السيرة العادلة بإحقاق الحقّ و إزهاق الباطل، وأنّه (عجل الله تعالى فرجه الشريف) يرجع الناس إلى هداية القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة بعد أن دُرست آثارهما. وفي هذا المعنى روى المفضل بن عمرو الجعفي قال: سمعت أبا عبدالله - جعفر بن محمد (عليه السلام) - قال: «إذا أذن الله تعالى للقائم في الخروج صعد المنبر فدعى الناس ألى نفسه، وناشدهم الله، ودعاهم إلى حقّه، وأن يسير فيهم بسنّة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، ويعمل فيهم

بعمله، فيبعث الله جبرئيل حتى يأتيه فينزل على الحطيم ويقول له: إلى أي شيءٍ تدعو؟ فيخبره القائم (عليه السلام)، فيقول جبرئيل: أنا أول من يبايعك وابسط يدك فيمسح على يده وقد وافاه ثلاثمائة وسبعة عشر رجلاً فيبايعونه ويقيم بمكة حتى يتم أصحابه عشرة آلاف»[٣٨].

وما مرّ بنا إشارة إلى بعض سيرته (عجل الله تعالى فرجه الشريف) عند قيامه وطريقة أحكامه.

ومن الاستدلالات في هذه العبارات لخطبة الإمام (عليه السلام):

١ ـ وحدة البشرية تحت راية واحدة وتدير شؤونها دولة واحدة.

٢ ـ تحقيق العدل والأمن والمساواة للناس أجمعين، في ظل الدولة المهدوية العالمية.

٣ ـ يعيش الناس في رغدٍ من العيش وينعمون با لخيرات فلا يبقى فقير في هذه الدولة.

٤ ـ تسود الفضائل والأخلاق بين الناس وينشر الحبّ والصفاء بينهم وتختفي مساوئ الأخلاق من قبيل الحسد والتنافس والأحقاد وغيرها.

٥ ـ إنّ الإمام المهدي المنتظر ـ أرواحنا له الفداء ـ عندما يحكم الناس بكتاب الله وسنة نبيّه (صلى الله عليه وآله وسلم) فبذلك يثبت للعالم أجمع أنّ القرآن والسنّة اللتين حكمتا الناس في جاهليتهم الأولى سيحكمان الناس في آخر الزمان وهم في قمة تطورهم الحضاري والتكنولوجي، مما يدل على أنّ القرآن الكريم والسنّة النبوية لكل عصر وزمان.

٦ ـ تتم العقول في ظل حكومة المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف)، وتمشي البشرية في طريق التكامل المادي والمعنوي.

يتبع ...

---

[١] . سورة الإسراء، الآية: ٧١.

[٢] . سورة الرعد، الآية: ٧.

[٣] . شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد .

[٤] . شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد ٢ : ١٨٩ .

[٥] . صحيح مسلم ٣:١٨٧٣، ح ٢٤٠٨، فرائد السمطين / للحموينى ٢:٢٣٤، الدرّ المنثور للسيوطي ٧:٢٤٩، السنن الكبري / لابن ماجة ١٠:١٩٤٠، ح ٢٠٣٣٥، مسند أحمد بن حنبل ٣:١٧ و ٥:١٨١، المستدرك على الصحيحين ٣:١٠٩، تاريخ دمشق / لابن عساكر ٢:٤٥ ح ٥٤٥، كنز العمال / للمتقي الهندي ١:١٦٨ح ٩٥٩، .غيرها من المصادر الكثيرة.

[٦] . شرح ابن ميثم ٣:٧.

[٧] . صحيح الترمذي ٥:٢٩٧، ح ٣٧٩٨، تفسير الفخر الرازي ١: ٢٠٥، مجمع الزوائد للهيثمي ٧: ٢٣٥و٩: ١٣٤، تاريخ بغداد ١٤: ٣٢١، فرائد السمطين للحموينى ١: ١٧٧، ح ١٣١، المستدرك ٣: ١٩و١٢٤، تاريخ ابن عساكر ترجمة الامام علي عليه لسلام ٣: ١١٩، ح ١١٦٢، كنز العمال ١١:٦٠٣، ح ٣٢٩١٢، الملل والنحل ١: ١٠٣، وقال ابن الجوزي: (لا يختلف العلماء في ذلك) صيد الخواطر: ٣٨٥.

[٨] . دعائم الاسلام للقاضي النعمان المغزي ١ : ٢٨ ، باب ذكر ايجاب الصلاة على محمد وال محمد .

[٩] . من لا يحضره الفقيه ٤ : ٣٨٨ ، ووسائل الشيعة ١٥ : ٢٨١ ،ح ٢٠٥١٧ .

[١٠] . وسائل الشيعة ١٥ : ٢٨٢ ، ح ٢٠٥٢١ ، بحارالانوار للمجلسي ٧٥ : ١٩٧ ، ح ١٩ .

[١١] . وسائل الشيعة ١٥ : ٢٨٢ ، ح ٢٠٥٢٢ ، الكافي للكليني ٨ : ١٥٠ ، ح ١٣ .

[١٢] . شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد ٢ : ١٩٨ .

[١٣] . بهج الصباغة للمحقق التستري ٣ : ٤٤٨ .

[١٤] . جاء بألفاظ متعددة كما في البداية والنهاية ٦ : ٢١٨ و ٧ : ٣٥٨ ، مجمع الزوائد للهيثمي ٩ : ١٣٧ ، والحاكم في المستدرك وصحيحه ٣ : ١١٣ و١٤٣ ، الصواعق لابن حجر : ١٢١ ، ب٩ ، ف٢ ، وغيرها من المصادر .

[١٥] . شرح النهج لابن ابي الحديد ٢ : ١٩٢ .

[١٦] . شرح النهج لابن ابي الحديد ، الكلمات القصار : ١٤٣ ، ٣٤٧ .

[١٧] . شرح ابن ميثم ٣ : ٨ .

[١٨] . نغمات الولاية مكارم الشيرازي ٤ : ٢٣٦ .

[١٩] . كمال الدين للصدوق : ٣٣٤ ،ح ٥ ، والغيبة للنعماني : ٥٧ ، والنقل بتقطيع .

[٢٠] . سورة الانعام ، الاية : ٩٧ .

[٢١] . كمال الدين للصدوق : ٦٧٣ ، ح ٢٥ .

[٢٢] . كمال الدين للصدوق : ٦٧٥ ، ح ٣٠ ، الكافي للكليني ١٠ : ٢٥ ، ح ٢١ .

[٢٣] . كمال الدين للصدوق : ٦٧٣ ، ح ٢٦ .

[٢٤] . شرح النهج لابن ميثم ٣ : ٩ .

[٢٥] . شرح النهج لابن ابي الحديد : خطبة ١٣٨ ، ٩ : ٤٠- ٤١ .

[٢٦] . البحار / للمجلسي ١:١٩.

[٢٧] . سورة ص، الآية: ٣٣.

[٢٨] . سورة القلم، الآية: ٤٢.

[٢٩] .مجمع البحرين / للطريحي ٤:٢٧٠.

[٣٠] . الشعر و الشعراء:١٣٨.

[٣١] . الإرشاد / للمفيد ٢: ٣٤٠، تاريخ بغداد ٤: ٣٨٨، كنزالعمال / للمتقي الهندي الهندي ٣: ٣٤٣، ح ٢٣٣٢، سنن أبي داود ٣: ٣٠٦، ح
٤٢٨٢، فرائد المسطين / للحموينى ٢: ٣٢٤، ح ٥٧٤، حلية أبي نعيم ٥: ٧٥، مناقب ابن شهر آشوب ٢: ٢٧٣،البحار / للمجلسي- ٣٦: ٣١٩، ح ١٧١، و ٢٠٠ و ٢٢١، و ٣٥٤، ح ٢٢٥، و٤١: ٣١٨،ح٤٢، وغيرها.

[٣٢] . شرح النهج / لابن أبي الحديد ٩: ٤٦.

[٣٣] . روضة الواعظين: ٢٦٥،الإرشاد / للمفيد ٢: ٣٨٤.

[٣٤] . كتاب الأربعين:٢٠٧، ميزان الحكمة ١ : ١٧٩،ح٢٣٢.

[٣٥] . سورة الزلزلة، الآية:٢.

[٣٦] . منهاج البراعة / للمحقق الخوئي ٨ : ٣١١.

[٣٧] . البحار / للمجلسي ٥١ : ٨١،المعجم الكبير / للطبراني ٨ : ١٠٢.

[٣٨] . البحار / للمجلسي ٥٢ : ٣٧٧،ح ٧٨،مستدرك سفينة البحار ١ : ٥١٥.